الفصل الثانى

رؤى فلسفية للدواء

«سبعة أيام مرت منذ الأمس عندما رأيت
حبيبى ،
أطرافى صارت ثقيلة ،
إنى لا أشعر ببدنى.
فإذا جاءنى كبار الأطباء،
لا أحصل على أية راحة من علاجاتهم،
كما أن السحرة من الكهنة ليس لديهم أدوية لى،
حيث أن مرضى لم يشخص بعد.
حبى أحلى بكثير من علاجاتى.
إنها بالنسبة لى أكثر أهمية من كافة كتب
الطب» .

شعر مصرى قديم كتب عام ١٥٠٠ ق.م.

إنه يشير إلى معرفة القدماء بالطب والدواء

بردية إيبرز .. يرجع تاريخها إلى ١٥٠٠ قبل الميلاد ويبلغ طولها أكثر من ٢١ ياردة .إنها تمثل سجل هام للمعارف التى كانت عند المصريين القدماء بخصوص الأدوية والتداوى .

منذ بدء وجود الإنسان وهو يناضل ضد المرض ، ومن أجل صحة أفضل ، وقد أفرز هذا النضال تراكمات فى الخبرات والمعارف الإنسانية فى مجال الدواء ، كانت تتطور تدريجيا وفى سرعات مختلفة ، خلال رحلة طويلة عبر الزمن . ومما لا شك فيه أن التقدم الدوائى العالمى الحالى ، وذلك الممكن فى المستقبل ، لم يكن ليكون لولا ذلك النضال المعرفى المتواصل عبر التاريخ الإنسانى الطويل من أجل علاجات أحسن . من هذا المنظور فإن إنسانية مسيرة التقدم الدوائى حالياً ومستقبلاً تتوقف على قدر الاستيعاب الفكرى للنضالات الدوائية التى بذلتها البشرية عبر تاريخها الطويل وفى كافة أرجاء الكرة الأرضية . كانت الرؤى الفلسفية للدواء تمثل الأطر الأساسية لنضالات الاستيعاب والتطوير . وقد تطورت هذه الرؤى من خلال رحلة عظيمة تكاد النظرة إليها تمثل نظرة (أو إطلالة) على تطور الإنسانية بوجه عام .

لقد بدأ الطب (وفى قلبه التداوى) سحرياً ، ثم دينياً ، ثم أصبح بالتدريج علمياً ، وقد شكلت الرؤى والتأملات نسيجاً متواصلا لرحلة التطور الدوائى فى مراحلها المختلفة .

ومن أبرز الرؤى والتأملات الخاصة بالتداوى والمرتبطة به يمكن الإشارة إلى ما يلى :

- الاعتقاد بأن الأمراض غير معروفة السبب تنشأ عن قوى فوق طبيعية .. وأن علاجها يكون بالسحر (مصر القديمة – برديات إيبرز – ١٥٠٠ ق.م.)، أو يكون (عند الإغريق – القرن السادس ق.م.) بالنوم فى أماكن خاصة تسمى اسكالبيا asclepias يديرها رهبان . كان الرهبان يشجعون المرضى على النوم حتى تزورهم آلهة العلاج (اسكالبيوس وابنتيه باناسيا وهيجيا) أثناء نومهم وتقوم بشفائهم .
- أن الأمراض تنشأ من الاعتداء على القوانين التى تحكم العالم ، وأن الآلهة المستاءة من الخطايا تثير المرض ، وهى أيضاً التى تهب الشفاء . كان العلاج يجرى باستخدام قصائد فلسفية دينية يطلق عليها الفيدا ، يعتقد أن فيها أسس الطب الهندى البديل وأنها (أى أناشيد الفيدا) أقدم من الطب الاغريقى [تعود إلى حوالى خمسة عشر قرنا قبل الميلاد] .

أسكلبيوس ، إله الشفاء عند الإغريق ، والى جواره ابنته هيجيا Hygeia ، والتى يرجع إلى اسمها مصطلح (وعلم) الصحة Hygiene .

- بعد ذلك [فى القرن السادس ق.م.] ينشأ منهج طبى جديد يسمى «ايروفيدا» والذى يعتقد أنه يرتبط بالبوذية ، حيث لا يقبل الانفصال بين الصرامة الأخلاقية والصرامة الصحية للجسد [إستقامة السلوك – التواضع – النظافة الجسدية – الاعتدال فى الشهوات ... إلخ) . وفى منهج الايروفيدا يكون لمعرفة وملاحظات الطبيب قيمة أكبر مما كان عليه الأمر فى نصوص الفيدا ، حيث للآلهة والجن والعفاريت تأثيرات أقل فى ظهور الأمراض .

- وطبقاً للايروفيدا ، فإن العناصر الرئيسية التى تتحكم فى الكون هى الهواء ، والتراب ، والنار ، والماء ، والفراغ ، وأما المواد التى يتكون منها جسم الإنسان فهى الدم ، والليمف ، واللحم ، والدهن ، والعظم ، والمخ ، والحيوانات المنوية . هذا ، وتعتمد الحالة الصحية على التوازن بين هذه العناصر والمكونات ، حيث يستهدف العلاج استعادة التوازن المشار إليه .

- تميز الرومان القدماء (خاصة فى فترة القرون الخمسة السابقة على الميلاد) بالإهتمام المكثف بالصحة العامة.

وكان يفضل الإنفاق على السلامة البدنية بالرياضة والنظافة أكثر من الإنفاق على الأطباء . فى نفس الوقت كانت الممارسة الطبيعية بالعلاج الدوائى – عادة – جزء من مهام رب المنزل ، حيث كانت الأدوية تتضمن مواد مثل الأعشاب وعسل النحل والكحوليات وصفار البيض ومنقوع الكبد .

- توصل الصينيون القدماء من خلال معتقدات خاصة إلى تصور للجسم يقوم على تشريح تخيلى وفسيولوجيا تخيلية، ويعتقد أن هذا التصور قد قادهم إلى أساليب علاجية خاصة جداً ، من أبرزها الوخز بالإبر .

- ساهم هيبوقراط (٤٦٠ – ٣٧٩ ق.م.) فى إرتقاء كبير فى الفكر الطبى متضمنا المداواة . تمثل ذلك الارتقاء فى النظر إلى العلم الطبى نظرة تعتمد على الممارسة وعلى إعتبار الطب فن الشفاء من المرض . من خلال ذلك نشط منهج التشخيص العلمى والتوقع والعلاج بالوسائل الغذائية (من خلال مساعدة قوى الطبيعة) . الجدير بالإنتباه أن التعاليم الهيبوقراطية لم تؤخذ فى الإعتبار على

مدى واسع طيلة قرون تالية وحتى عصر النهضة (طبقاً لتحليلات عديد من الدارسين والمؤرخين) .

- فى القرن الثانى الميلادى طغت شخصية جالين (١٣١ – ٢٠١ م.) على الطب . كان غائيا ، يعتقد بأن كل شىء فى الطبيعة مقصود به غاية معينة . نشط فى التجريب ، ولكن على الحيوانات فقط . كان يعتقد بأنه قد استكمل إجراء كافة البحوث الممكنة ، وما على من يأتى بعده إلا أن يطبق تعاليمه واكتشافاته دون بذل جهد . تنسب إليه الصيدلة الجالينية (وصفات من الموارد الطبيعية ، خاصة النباتات) والتى ظلت سارية طوال قرون عديدة من بعده ، وهى علامة – عند البعض – لعصور الظلام فى أوروبا حيث يُرى أنها لم تتأسس على براهين وبيانات كافية تكفل لها الاستمرار دون شك لفترة زمنية طويلة .

- الاتجاه إلى استخدام المفردات الدوائية البسيطة بدلا من التحضيرات النباتية المركبة (التى تميزت بها الصيدلة الجالينية) . يعتبر الغربيون أن ذلك الاتجاه قد بدأ بواسطة باراسيلسوس ، طبيب كيميائى سويسرى (١٤٩٣ –

١٥٤١) ، والصحيح فى تقديرنا أن هذا الاتجاه قد نشأ فى ظل الحضارة الإسلامية ، كما سنأتى إلى ذكر ذلك بالتفصيل فيما بعد . إلا أن الدور التاريخى لباراسيلسوس يختص باستخدام المواد الكيميائية البسيطة خاصة مركبات الزئبق فى علاج مرض الزهرى ، كما يذكر أنه قام بإحراق مؤلفات جالين أمام الناس ، وفى هذا الشأن يوصف بأنه ثورى محطم للتماثيل . وربما يكون الأكثر أهمية فى الإسهامات الفكرية الدوائية لباراسيلسوس مناداته بأن غرض الكيمياء ليس البحث عن حجر الفلاسفة (وتحويل الأشياء إلى ذهب) ؛ وإنما التوصل من خلال الدراسات العلمية الأساسية إلى مركبات كيميائية تجابه الأمراض . لقد أدت هذه الدعوة إلى إحداث تحول فى دراسات الكيمياء ، وقد لُقب بواسطة البعض بأبو الكيمياء الدوائية.

- النظر إلى الجسم البشرى - بواسطة الفيزيائيين - من خلال قوانين الفيزياء (الوزن والحرارة والعمل العضلى... إلخ) وهو ما عرف بالفيزياء الطبية . وفى مقابل ذلك بزغ

النظر إلى الجسم البشرى باعتباره إطار لتفاعلات كيميائية، وهو ما يعرف بالكيمياء الطبية . ظهرت هذه التوجهات فى القرن السابع عشر . وفى النصف الأول من القرن الثامن عشر اختفى التعارض بين التوجهين وذلك عندما اتضح أن كل العمليات الكيميائية تصحبها ظواهر حرارية . لقد نما إختفاء التعارض – على وجه الخصوص – من خلال الاقتراب المنظم Systematic لعلم الفسيولوجى ، والذى صارت له انعكاساته الحيوية المباشرة بعد ذلك على بزوغ علم الدواء Pharmacology .

- بالارتكاز على طفرة التجريب فى القرن الثامن عشر فى مجالات الفسيولوجى والتشريح والكيمياء ، أمكن للطب خلال القرن التاسع عشر أن يكف عن الارتباط بالفلسفة (أو بالتجريد) ، وصار يعتمد مباشرة على الملاحظة والفعل والعلوم الدقيقة .
- البدايات المؤدية لنشأة علم الدواء – بالاعتماد على المنهج العلمى – فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، حيث يعالج ذلك بالتفصيل فى فصل قائم بذاته .

مزارعات فى كينيا يقمن بجمع أزهار نبات البيريثروم Pyrethrum والذى تستخرج منه مواد قاتلة للحشرات .